خـاتـمة

أهم بكثير من الأسلوب ايقاع حضارتنا ذاته ، ذلك الايقاع الذى يقوم على احترام التمرد ، والذى يقال معه إن قيمة الفرد بالنسبة لنا تقاس بمدى تمرده على الأشياء.

أ م. سيوران

على الإنسان أن يكون ابن عصره.

دوميه

لابد ان دراسة أعمال كامى التى اشتملت عليها الفصول السابقة ، قد أثبتت أن هذه الأعمال تعبر عن موقفين : موقف أخلاقى وموقف فكرى يتميز كل منهما عن الآخر ، وقد أضفى كامى على هذا الموقف طابعا فرديا جعله يتبوأ مستوى بعينه يميزه عن بقية معاصريه . وفى مستوى آخر تعبر هذه القصص والمسرحيات والمقالات عن اتجاهات عامة فى الأدب الحديث يدرجها الفرنسيون تحت عنوان «أدب المشكلة» Litterature Problematique فوجهة النظر التى تنطوى عليها هذه التآليف وجهة شخصية ، لكنها استجابة كامى الشخصية للسمات السائدة فى عصره ، وان كتاباته عن العبث على سبيل المثال ، تنتمى إلى عالم رحب ، حيث الإحساس باللامنطقية يزداد حدة وعنفا .

ويعد مؤلف رواية «الغريب» و«أسطورة سيزيف» شاهدا على عالم يميزه التفكك الدائم ، والصراع ، والعنف ، والإخفاق فى التعبير تعبيرا كافيا . وقد أدى الافتقار إلى معايير عامة أو قيم يقبلها الجميع إلى قلق واضطراب ، وإلى الدعوة التى يتميز بها «الإنسان اللا معقول» . فالكتاب المعاصرون الذين يعتقد انهم يتباينون كل التباين مثل مالرو ، وسارتر ، وبرنانو ، وجرين ، وفوكنر ، وكافكا ، ويونجر ، وغيرهم ، قد أسهموا كل بطريقته الخاصة فى «أدب المشكلة» ، وبذلك عبروا عما عبر عنه كامى من إحساس بالقلق والبحث عن مغزى للتجربة .

ولقد صاحب هذا الموقف العام الذى يتسم بالقلق والتساؤل نزعة من التمرد تعد خاصية أخرى من خصائص الأدب الحديث ، كما أن التأكيد على عبثية أو لا منطقية الوجود ، أدى إلى رفض المطلقات التى تتولى مهمة تفسير هذا العبث ، وتوحيد هذا الوجود المفكك ، تلك القيم التى لا يؤكدها الا جيل يثق فى قدراته ثقة كبيرة . وتلك هى نزعة التمرد العام فى الأدب ، أى رفض الأشكال والمواقف أو المضامين العقلية ، وقد تناولت هذا الموضوع بالدراسة فى المقدمة ، وهكذا نرى أن نزعة التمرد المعاصرة نزعتان :

أما ما نسميه «التمرد الضمنى» implicit revolt فيصاحب إثبات حقيقة اللامنطقية فى الوجود ، ثم يتبع هذا الإثبات نزعة تمردية علنية ، يطلق عليها اسم «التمرد العلنى» explicit revolt . وإن أهم موضوعين فى أدب كامى وهما «العبث» و«التمرد» يؤكدان ثنائية الموقف المتمرد تأكيداً واضحاً . ومن هذه الناحية يعد كامى معاصراً نموذجياً ، كما أن تأثيره وآراءه لا يحتاجان إلى إيضاح . إلا أن كامى باعتباره من أهل الجنوب ، أو من شعوب البحر المتوسط ، فهو بالدرجة الأولى يدين بالولاء لقيم بعينها ترتبط بالعالم القديم لا سيما بلاد اليونان ، وتلك سمة من سمات فكره تجعله متميزاً ومتفرداً ، بل إن هذه السمة من شأنها ، فيما أعتقد ، أن توضح جانب الضعف وجانب القوة فى آرائه عن التمرد .

أما مناط القوة فى موقف كامى فيبدو واضحاً ، ذلك لأن التزامه بما يسميه «فكرة الجنوب» أو «الفكر المشرق» .. (الإنسان كأهم موضوع بالنسبة للفرد ، فكرة الاعتدال كمثل أعلى ، اللامبالاة ، الإيمان بالطبيعة أكثر من الإيمان

بالتاريخ) . هذا الالتزام من شأنه إضفاء صورة إيجابية على التمرد ، فالمبدأ الذى يقدمه ليس هو مبدأ العدمية ، بل هو فى الواقع ، وكما سبق أن رأينا ، أحياناً ما يشتط فى نقده لهذا المبدأ ، بل إن ما يقدمه هو التمرد من أجل القيم والمثل العليا التى أدارت أوروبا لها ظهرها ، فالقيم التى يتمرد كامى من أجلها ، قيم إنسانية فى جوهرها ، وتأثير هذه القيم هو الذى يوجه نزعته التمردية ، ويضفى عليها وقاراً مؤثراً وقوة أخلاقية . إلا أن هذه السمات لها فى بعض الأحيان جوانبها السيئة ، فمن الواضح مثلاً أن تمرد كامى ليس رفضاً مطلقاً لأحد الأوضاع ، إلا من أجل استبداله بوضع آخر ، فهو لا يرفض مجموعة من القيم المطلقة إلا لكى يستبدلها بمجموعة أخرى . وهذه الحقيقة تذكيه عند أصحاب الحذر ، لكن الحقيقة نفسها بالنسبة للمتمردين من أمثاله تخفف من حدة تمرده ، وتجعل هذا التمرد لا يزيد على كونه مجرد موقف تقدمى ظاهر ، يخفى فى أعطافه موقفاً رجعياً فى جوهره .

وكامى بالنسبة للبعض ، ممن يؤمنون بفلسفة المطلق ، كما أنه يؤمن بالماهية أكثر من إيمانه بالوجود وذلك فى مجال الأخلاق ، وهذا هو السبب الذى جعل خلافه مع سارتر ينتهى آخر الأمر إلى خلاف حول الموقف الأخلاقى ، فموقف كامى الأخلاقى موقف سلبى ، فعلى الرغم من العبث والتمرد نراه يضع ثقته فى مثل عليا سبق أن تقررت ، أما موقف سارتر الأخلاقى ، فهو موقف إيجابى يعمل على خلق فلسفة أخلاقية جديدة متطورة ، وذلك فى أثناء تمرده فى وجه العبث .

وأخيراً فإن هذا الصراع العام عند كامى بين اتجاه الثورة واتجاه المحافظة ، يؤدى إلى تناقضات خاصة فى موقفه الفكرى ، فهو يفسر بعض الاعتراضات الرئيسية التى وجهت إلى مثله العليا ، ذلك لأن إدراكه لحقيقة وجود العبث ، دفعه إلى وجوب الوقوف على نوع من « الدلالة » كما أن إرادته التى دفعته إلى التمرد ، أدت إلى دفاعه عن موقف « الوسطية » ، كما أن هذا الصراع يفسر هجومه على مبدأ الفعالية فى السياسة ، ويوضح موقف اللا عملية السامى الذى يعزوه الكثيرون إلى موقفه السياسى ، فضلاً عن كون هذا الصراع وراء الاختلاف النوعى بين المقالات التى كتبها حول آرائه ، وبين أعماله الأدبية . وفى رأيى أن الفصول السابقة قد أوضحت ، أن ما حققه كامى باعتباره كاتباً روائياً ومسرحياً ، يفوق كل التفوق

ما حققه فى مجال الفلسفة والسياسة من تآليف ، فالإخلاص الواضح ، والمهارة الأدبية فى كل من « اسطورة سيزيف » و« الإنسان المتمرد » لا ينبغى أن تجعلنا نتغاضى عما فيهما من ثغرات فكرية ، فكلا الكتابين يتخذان نقطة ابتداء غاية فى التطرف ، لا يستطيعان ، آخر الأمر ، الإبقاء عليها بصورة منطقية . حقاً إن هذه الروايات والمسرحيات بطبيعة الحال ، تقوم على نفس المواقف المتطرفة ، إلا أن كامى ، على الرغم من هذا ، استطاع فى تعبيره الأدبى أو الفنى عن هذه الأفكار ، أن يفيد من مزايا التأثير العاطفى دون اللجوء إلى الخوض فى تفصيلات عن نتائج هذه الأفكار ،.. المنطقية والعملية . أى أن هذا الانقسام فى فكر كامى ، فى الوقت الذى يضعف من كتاباته التى تحتوى على الجدل وعرض الأفكار ، لا يؤثر نسبياً فى أعماله الأدبية . وقد وصفت هذا الصراع العام عند كامى بأنه تضارب بين اتجاه التمرد واتجاه المحافظة ، أو بين الإبقاء على الأوضاع والرغبة فى تغييرها ، وهذا فى جوهره ، يعد أولاً وقبل كل شىء ، صراعاً بين « الوسطية » وبين التطرف . إن مبدأ « الاعتدال » عند الإغريق مبدأ متأصل فى نفس كامى ، وعلى هذا الأساس فهو يبدو متجهاً بذهنه أصلاً إلى الماضى ، إلا أنه متجاوب إلى أبعد حد مع الحاضر ، ذلك الحاضر الذى يتسم بالتطرف ، والذى ينظر من خلاله إلى الماضى الذى يتسم بالاعتدال .

وإن الموقف أو « الجو » الذى ينطوى عليه أدب كامى ، ليجد صدى فى تجارب كثير من القراء ، إلا إننى أرى أنه من الخطل أن ننظر إلى الصراع بين موقف الاعتدال وموقف التطرف نظرة زمانية خالصة ، لأن ذلك معناه افتقار الطبيعة الحقيقية لتميزه بين معاصريه . أى أن مايفعله ليس مجرد الرجوع بعقارب الزمن إلى الوراء ، وليس كامى بالكاتب الذى يجاهد لفهم الحاضر حتى يتسنى له أن يجعل حكمة الماضى مستساغة لهذا الحاضر ، ذلك لأن تفرد موقف كامى يكمن فى كونه من أبناء شمال أفريقيا ، وفى أنه يتصل أوثق الاتصال بأوروبا المعاصرة ، ولما كان قد ترعرع فى الجزائر ، فلديه إحساس حاد بالحيوية الدافقة لما قد يسمى « بالنظرة اليونانية إلى « الحياة » . ولما كان من ناحية أخرى فرنسيا عاش فى باريس منذ الأربعينيات من هذا القرن ، فهو يعى كل الوعى المشكلات الفكرية التى عانتها أوروبا . وهكذا فإن الصراع الذى يتميز به فكر كامى يشكل صراعا مكانيا بقدر

ما يشكل صراعا زمانيا يتيح له المزاج بين الالتزام والموضوعية امتزاجا غير عادى . ولقد كانت هذه الثنائية هى الدافع الرئيسى وراء كتاباته ، بقدر ماكانت هذه الكتابات ـ إلى حد كبير ـ محاولة لبلورة التوتر الدائم .

وإن كامى لعلى وعى تام بهذه الصفة التى يتصف بها تفكيره ، ولقد أشار إليها بشىء من الإفاضة فى مقابلته مع نيقولا شيار ومونتى المذكور فى المقدمة . على ان هذا الصراع بين الاعتدال والتطرف ، غالبا ما أدى بكامى إلى اتخاذ موقف سلبى ، بل جعل مناقشته تتسم بالسمة الدفاعية ، وهو ما تجلى واضحا فى محاولته الدفاع عن بعض القيم ضد نواحى التطرف فى النزعة العدمية . ولو ان كامى لم يتخذ هذا الموقف إلا بعد أن كابد هو نفسه إغواء المذهب العدمى ، فهو يمثل عصره ، بفضل الصراع بين الشك والايمان ، ذلك الصراع الذى كان ولا يزال مسيطرا على فكر معاصريه بشىء من الموضوعية ، والذى عاشه كامى بشىء من الأصالة . إن البير كامى هو المعبر عن جيله ، وهو الدلالة على هذا الجيل .

وهكذا فإنه بتمثيله لعصره على هذا النحو ، إنما كان يعبر عن العادات الفكرية ، فضلاً عن تجاربه السياسية التى كتبها فى صورة مسرحيات ، والمصادر الرئيسية للقلق الأخلاقى التى أماط عنها اللثام . ولهذه الأسباب يعده معاصروه كاتباً جديراً بالاهتمام ، ويعد بالنسبة لكثير منهم أديباً ممتازاً لموهبته الفنية ومهارته التكنيكية مما ظهر فى رواياته ومسرحياته ، تلك الأعمال التى بدا من خلالها مهتماً كل الاهتمام بتفهم طبيعة الإنسان ، وتفهم موضعه فى هذا العالم .